المحاضرة (02) التّلقي في الخطاب الشّفوي والكتابي

- تعريف الخطاب (لغة واصطلاحا)
- التّلقي في الخطاب الشّفوي
- التّلقي في الخطاب الكتابي

التّلقي في الخطاب الشّفوي والكتابي

تمهيد:

تهدف عملية التواصل إلى إيصال الرسالة وإنتاج الدلالة وتأويلها، وهذه العملية تقوم أساسا على اللغة بوصفها " أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم " [1]؛ وهي تتطلب توفر عناصر أساسية: الباث، الخطاب (الرسالة اللغوية)، قناة التواصل، المتلقي، وقد عمدت نظرية التلقي إلى تجاوز العلاقة بين النص وكاتبه، لتهتم بالنص ومتلقيه، وبما أن التواصل يقوم على التأثير والتأثر، بحيث يكون التأثر هو المجال الرئيسي الذي تشتغل عليه نظرية التلقي، فإن الخطاب بلا شك "... إذا كان موجها للتأثير والإقناع فإنّ المخاطب يحتل الركن الأساسي في عملية الخطاب " [2]؛وإن الدارس للخطاب عموما لا يستطيع أن يهمل عملية التلقي، لأنها مجالات مرتبطة ببعضها ولا تقوم إحداها دون الأخرى، وعلى هذا فإن نظرية التلقي تهدف على وجه الخصوص إلى " تدقيق العلاقة بين الخطاب والمتقبل وأبرز مقوماتها وأبعادها الجمالي ومدى فاعلية المتلقي في استجلاء المعاني والمقاصد الدلالية " [3]

وللوصول إلى غايات التلقي في كل من الخطاب الشفوي والخطاب الكتابي فلابد من ضبط مصطلح الخطاب ونوعيه:

---

[1] ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب المصرية، جزء 1، د ت، ص 33

[2] موساوي يمينة ليلى، التعابير المسكوكة ودورها في الخطاب السياسي، دراسة دلالية تقابلية عربية - فرنسية، ، ذكرة ماجستير في علم اللغة الحديث، جامعة تلمسان، 2010، ص 45

[3] سمير الغانمي: الخطاب وجمالية التلقي، مجلة الميادين للدراسات في العلوم الإنسانية، مج 2، ع 1، تونس، ص 162

تعريف الخطاب:

لغة: جاء في أساس البلاغة للزمخشري " خطب: خاطبه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام، وخطب الخطيب خطبة حسنة، وكثر خطّابها، وهذا خطبها، وكان يقوم الرجل في النادي في الجاهلية فيقول: خطب، فمن أراد إنكاحه قال: نكح "[1]؛ وأكد ابن منظور أن الخطاب " مراجعة الكلام وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا وهما يتخاطبان "[2]؛ وهو أيضا " توجيه الكلام نحو الغير بلا إفهام، وقد يعبّر عنه بما يقع به التخاطب...والخطاب اللّفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه "[3]؛ ونلمس أن تعريف الخطاب في المعاجم الحديثة لا يختلف كثيرا عنه في المعاجم القديمة، جاء في المنجد في اللغة والأدب والعلوم للويس معلوف " خطب خطبة وخطبا وخطابة، وعظ، قرأ الخطبة على الحاضرين، يقال خطب القوم وفي القوم خطب خطابة: صار خطيبا، يقال خاطبه في فلان أي راجعه في شأنه، تخاطبا، تكالما، اختطب على المنبر: خطب "[4] وورد في نفس المعجم أيضا " الخطاب: ما يكلم به الرجل صاحبه ونقيضه الجواب. "[5]

ونخلص من هذه التعريفات إلى أن الخطاب ليس مجرد ألفاظ تُقال أو تُكتب، إنما هو فعل تواصلي مقصود يحمل رسالة لغوية موجَّهة إلى غير المتكلم، ولا تكتمل دلالته إلا بوجود مستقبل قادر على التقاطها والتفاعل معها. فاللغة هنا تؤدي وظيفة مزدوجة: فهي من جهة وعاءٌ للمعنى، ومن جهة أخرى نظامٌ من العلامات يحتاج إلى من يفكّ رموزه ويُعيد بناء مقاصده بحسب قدرته المعرفية وخبرته وسياقه. لذلك يصبح

---

[1] الزمخشري: أساس البلاغة، تح محمد باسل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998، مادة (خطب)

[2] ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، 7 مجلدات، 1997، مادة (خطب)

[3] الشهاوني: كشف اصطلاحات الفنون، دار صادر، بيروت، 3 أجزاء، د ت، 449/1

[4] لويس معلوف: المنجد في اللغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط 19، دت، مادة (خطب)

[5] ينظر المرجع نفسه، مادة (خطب)

المتلقي طرفًا أصيلًا في إنتاج المعنى، لأن فهم الخطاب لا يتحقق تلقائيًا بمجرد وصول الرسالة، بل يمرّ عبر عمليات ذهنية وتأويلية مثل الاستنتاج والربط واستحضار المقام وتحديد قصد المتكلم. وبهذا المعنى، يغدو الخطاب علاقةً بين مرسِل ورسالة ومستقبِل ضمن سياقٍ يحكمه قصد الإفهام، وتتحول "المواجهة بالكلام" من مجرد تبادل لفظي إلى تواصل يهدف إلى التأثير والإقناع أو الإخبار، ويجعل نجاح الخطاب مرهونًا بمدى استعداد المتلقي للفهم وبمدى وضوح الشفرة اللغوية وتنظيمها.

اصطلاحا:

إن كل نشاط تواصلي يقوم على خطاب من نوع ما، يكون بين باثّ ومستقبل وعليه فإن " الخطاب (discours)هو كل وحدة لغوية تواصلية مرتبطة بظروف مقامية معينة، يبثها المخاطب، كاتبا كان أو متكلما، إلى المتلقي فيستقبلها هذا الأخير ويفك رموزها ويؤول مضمونها بما يمتلكه من معطيات ومعارف مخزنة في الذهن وكفاءات استدلالية للوقوف على دلالاتها القصدية ضمانا لنجاح العمل التواصلي " [1]؛ ويوضح أحمد المتوكل هذه الوحدة اللغوية بقوله " يعدّ خطابا كل إنتاج لعبارات لغوية يكوّن مجموعه وحدة تواصلية، ونقصد بالوحدة التواصلية أن يكون للعبارات اللغوية المنتجة في مقام معين موضوع معين وعرض تواصلي معين، من الواضح أن ما يؤسس تعريفا كهذا ليس نوع العبارات اللغوية ولا حجمها ولا عددها إنما هو وحدة التواصل التي تكمن في وحدة المقام والموضوع والعرض، بهذا المعنى يمكن أن نقول أن الرواية خطاب والمقالة خطاب والمحاضرة خطاب والنقاش حول موضوع ما خطاب إلى غير

[1] سمير الغانمي: الخطاب وجمالية التلقي، مجلة الميادين للدراسات في العلوم الإنسانية، مج 2، ع 1، تونس، ص 165

ذلك "[1] ونستنتج من التعريف الأخير أن مفهوم الخطاب يضيق ليتطابق مع مفهوم النص ويتسع في آن واحد ليشمل أنواع التواصل المختلفة.

ويمكن القول أن مفهوم الخطاب لا يُحدَّد بشكله اللغوي ولا بطوله ولا بنوع العبارات التي يتكوّن منها، بل بما يحققه من وحدة تواصلية داخل مقام محدد، أي بتلاقي عناصر ثلاثة: المقام الذي يُنتَج فيه الكلام، والموضوع الذي يدور حوله، والعرض التواصلي أو الغاية التي يتجه إليها. وبهذا يصبح الخطاب إطارًا وظيفيًا يتجاوز التصنيفات الشكلية، إذ قد يكون جملةً مقتضبة أو نصًا طويلًا ما دام ينتظم في وحدة تواصلية واضحة. ومن هنا تتجلى مرونة المصطلح: فهو يقترب من مفهوم النص عندما ننظر إليه بوصفه وحدة لغوية متماسكة قابلة للوصف والتحليل، لكنه في الوقت نفسه يتسع ليتجاوز النص بمعناه الضيق ليشمل مختلف أنماط الإنجاز اللغوي في الحياة الثقافية والاجتماعية (الرواية، المقالة، المحاضرة، النقاش...)، لأن معيار الانتماء إلى الخطاب ليس "هيئة النص" بل "تحقق الفعل التواصلي" بوحدة مقامه وموضوعه وغايته. وبذلك لا يكون التوسع هنا توسعًا اعتباطيًا، بل اتساعًا تفرضه طبيعة الخطاب كحدث تواصلي ينتظم اللغة داخل سياق ويمنحها وظيفة ومعنى.

التلقي في الخطاب الشفوي:

يكتسي الخطاب الشفوي خصوصية من خلال الوحدات اللغوية المسموعة التي يشكّلها، ويمكن اعتبار هذه الوحدات آنية عكس الوحدات اللغوية في الخطاب الكتابي لأنها تدوم بأثر الكتابة، ولكن هذا لا يغير المفهوم الأساسي الذي يشكله الخطاب عموما سواء كان شفويا أو مكتوبا، فقد اعتبره أرسطو " نشاطا شفهيا يحاول فيه المتحدّث أن يقنع أو يحقق هدفه مع مستمع عن طريق صياغة قوية ماهرة للحجج

[1] أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، ط1، 2001، ص 79

التي يعرفها ويمكن تمثيل ذلك في المخطط الآتي: المتحدّث – الرسالة – نشاط شفهي – المستمع " [1]والواضح هنا أن عناصر عملية التواصل تسمى وفق خاصية التحدث، إذ يصبح كل من الباث والمتلقي، متحدثا ومستمعا بالضرورة، وتصبح قناة التواصل عبارة عن نشاط شفهي وتكون بهذه الرسالة " متمثلة في الواقع في شكل نظام صوتي ومجموعة من الرموز اللغوية في إطار حدث كلامي تواصلي، والمستمع أي جمهور المتلقين " [2].

يبرز هذا الطرح تميزًا دقيقًا بين الشفوي والكتابي من زاوية طبيعة المادة اللغوية: فالشفوي يتأسس على وحدات مسموعة تتحدد بظرف التلفظ وتتحقق في لحظة إنتاجها ثم تميل إلى الزوال ما لم تُسجَّل، بينما يكتسب المكتوب امتدادًا زمنيًا بحكم أثر الكتابة الذي يضمن بقاء الرسالة وإمكان الرجوع إليها. ومع ذلك، فإن اختلاف وسيط الإبلاغ لا يمسّ جوهر الخطاب بوصفه فعلًا تواصليًا غائيًا، لأن القاسم المشترك بين النمطين هو السعي إلى التأثير وتحقيق مقصد داخل علاقة تفاعلية بين طرفين ورسالة وقناة. لذلك يتخذ توصيف عناصر التواصل في الخطاب الشفوي أسماءً تلائم خاصية التحدث، فيتحول الباث إلى متحدث والمتلقي إلى مستمع، وتغدو القناة نشاطًا شفهيًا تتجسد فيه الرسالة صوتًا وإيقاعًا وتنغيمًا، ضمن حدث كلامي تحكمه شروط المقام وحضور الجمهور. ويقود هذا إلى نتيجة مهمّة مفادها أن خصوصية الشفوي لا تتوقف عند "الفناء الزمني" للوحدات، بل تمتد إلى كونه خطابًا مشروطًا بالمواجهة والتفاعل المباشر وما يصاحب ذلك من مؤشرات صوتية وسياقية تُسهم في بناء المعنى وتوجيه الإقناع، في حين يعوّض المكتوب غياب هذه المؤشرات بعناصر تنظيمية ولغوية أخرى تضمن وضوح المقصد وتماسك الحجاج.

---

[1] حورية عيسى: الخطاب الأدبي في التراث العربي بين تقنية التبليغ وآلية التلقي، أطروحة دكتوراه في اللسانيات، جامعة وهران، 2015، ص3

[2] المرجع نفسه، ص ن

يقتضي التلقي في الخطاب الشفوي حضورا شخصيا للمتحدث والمستمع، كما تتميز وحداته اللغوية بتداخل الحركات والإشارات التي يمكن الاستعانة بها خلال عملية التواصل، كما أنه يمكننا التأكد من مدى حدوث الأثر المرجو من الخطاب أثناء عملية التواصل في حينها، وهذا ما يتعذر علينا ملاحظته في الخطاب المكتوب، ويؤكد هذا الكلام عبد السلام المسدي في قوله " إن الخطاب الألسني العادي هو خطاب شفاف يرى من خلاله معناه،ولا نكاد نراه هو في ذاته، فهو منفذ بلوري لا يقوم حاجزا أمام أشعة البصر " [1]؛ وأول من انتبه إلى خصوصية التلقي في الخطاب الشفوي هم اليونان، لأن اهتمامهم الأكبر كان بالمسرح، الجنس الأدبي السائد آنذاك، وهو الفن الذي اعتمد على الشفوية على اعتبار أن الممثل هو (المتحدث)والجمهور هو المستمع.

وفي فن الخطابة أيضا جعل السفسطائيون المستمع أو المتلقي في الطرف الغائي وركزوا على الجانب العاطفي انطلاقا من إيماءات اللغة ومع ما اتصفت به من سحر في التركيب مع مراعاة ثقافة المتلقي ومستواه ومعرفة ظروف وحيثيات التلقي الناجح، ورأوا بأن الخطابة الناجحة ينبغي أن ترصع بألوان البديع والبيان والزخارف اللغوية حتى يكون لها تأثير وتقبل واستجابة لدى الجمهور .[2]ونستنتج من ذلك أن الخطابة -في منظور السفسطائيين-تُبنى أساسًا على مبدأ مركزية المتلقي؛ فنجاح القول لا يُقاس بصدق مضمونه أو صرامة برهانه وحدهما، بل بقدرته على تحريك وجدان الجمهور وتوجيه استجابته. لذلك تتحول اللغة من مجرد أداة للإخبار إلى وسيلة للتأثير، تُستثمر فيها الإيماءات والإيقاع والتنغيم وسحر التركيب بما يوافق ثقافة المستمع ومستواه وحاجاته، ويأخذ في الحسبان شروط المقام وظروف التلقي. ومن هنا تغدو

[1] عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، نحو بديل ألسني في نقد الأدب، الدار العربية للكتاب، ليبيا، دت، ص29

[2] ينظر، علي بخوش: مفهوم التلقي في الفكر اليوناني القديم، مجلة المخبر، كلية الآداب واللغات، جامعة بسكرة، الجزائر، ع3، 2006، ص 142-143

الزخرفة البلاغية وألوان البديع والبيان استراتيجية حجاجية تُكسِب الخطاب قوة الإقناع وتضمن القبول، لأن الاستجابة المتوقعة عند الجمهور تُصاغ عبر توظيف الجماليات اللغوية في خدمة الغاية التواصلية.

أما العرب القدامى فقد اهتموا بالمتلقي باهتمامهم بالشعر الذي كان يلقى على مسامع المتلقين في المجالس والأسواق وحرصوا على تقويم النصوص الشعرية والحكم عليها من حيث الجزالة والجودة والسبق، وبهذا قد وضعوا المتلقي " في مرْلة مهمة من منازل الأدب، وقصده بخطابه قصدا وحث الشعراء على أن يكون شعرهم متوجها إليه "[1] فالعلاقة هنا وطيدة بين الشاعر (المتحدث)والمتلقي (السامع)بل إن فعل التلقي أشد ارتباطا بالشعر شفاهيا وسماعا، بحيث إن السامع بوصفه مصطلحا شاملا قد تنضوي تحته مختلف أنماط التلقي الشفاهية أو السماعية فضلا عن القرائية.[2] ونستنتج من ذلك أن الخطابة، كما تصورها السفسطائيون، تُقاس قيمتها من أثرها في جمهورها، وليس من داخل القول وحده؛ إذ يتحول المستمع إلى الغاية النهائية التي يُصاغ من أجلها الخطاب، فتُنتقى الأساليب وتُرتّب الحجج وتُشحَن اللغة بالعاطفة والإيقاع والزينة البلاغية وفق ثقافة المتلقي ومستواه وسياق حضوره. وبذلك تغدو البلاغة ممارسةً تواصليةً تتوسل الجماليات اللغوية، بوصفها أدواتٍ لإحداث الاستجابة والإقناع وضمان "نجاح" الفعل التواصلي.

أما العربُ القدامى فقد تجلّى اهتمامهم بالمتلقي من خلال عنايتهم بالشعر بوصفه فنًا شفويًا يُلقى على مسامع الناس في المجالس والأسواق، حيث كان حضور الجمهور جزءًا من وجود القصيدة نفسها. لذلك لم يكتفوا بتداول الشعر، بل حرصوا على تقويمه والحكم عليه من حيث الجزالة والجودة والسبق، بما يعني أن المتلقي كان شريكًا ضمنيًا في صناعة القيمة الأدبية وتثبيتها. فالعلاقة هنا وثيقة بين الشاعر

[1] محمد المبارك: استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 1999، ص 10

[2] ينظر، بشرى موسى: نظرية التلقي أصول وتطبيقات، المركز الثقافي العربي، 2001، ص 39

بوصفه متحدثًا والمتلقي بوصفه سامعًا، لأن فعل التلقي في الشعر الشفوي يقوم على السماع المباشر وما يصاحبه من تفاعل وانفعال واستحسان أورفض. ومن ثمّ يصبح "السامع" مصطلحًا واسعًا يمكن أن يندرج تحته تنوع أنماط التلقي الشفاهية والسماعية، بل ويمتد ليشمل التلقي القرائي لاحقًا، بما يؤكد أن مركزية المتلقي ليست طارئة في الثقافة العربية، وإنما هي متجذرة في طبيعة الممارسة الأدبية نفسها حين كانت تُؤدى وتُستقبل في فضاء جماعي حي. ويضيء صالح هويدي هذه الفكرة من منظور نظرية القراءة حين يقرر أن "إن عملية القراءة لدى هؤلاء النقاد ليست في محصلتها النهائية سوى حوار جدلي خلاق بين تجربة المتلقي الذاتية والتجربة الموضوعية كما يجسدها النص... تبعاً لتغير أفق المتلقي وتجارب المتلقين"[1]، وهو قولٌ ينسجم مع طبيعة التلقي الشفوي القديم؛ لأن "الحوار الجدلي" لا ينحصر في القراءة الصامتة الحديثة، بل يمكن أن يتحقق أيضًا في السماع الحيّ بما يتضمنه من تفاعلٍ مباشر وتفاوضٍ دلالي بين ما يقوله الشاعر وما يستجيبه الجمهور، لتتكون القيمة الأدبية وتتثبت اجتماعيًا عبر هذا الاشتغال التواصلي المستمر.

التلقي في الخطاب الكتابي:

إنّ النص الأدبي يحتاج إلى ترميز يهدف من خلاله الباثّ إلى مساعدة المستقبل على فهم الدلالة، لأن الأدب لا يشتغل عادةً بمنطق الإخبار المباشر، بل بمنطق الإيحاء وبناء المعنى عبر طبقات من العلامات. فالمعنى في النص الأدبي لا يُقال كاملًا على سطح العبارة، وإنما يُوزَّع داخل بنى أسلوبية وسردية وصوتية تلمّح أكثر مما تصرّح، مثل الاستعارة والرمز والصورة والإيقاع والتكرار والمفارقة وتعدد الأصوات، وهي كلها وسائل ترميز تجعل الدلالة قابلة للتوليد والتجدد. ولهذا فإن القراءة هي نشاط

[1] - صالح هويدي، المناهج النقدية الحديثة: أسئلة ومقاربات (نقد أدبي)، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، سوريا، ط1، 2015، ص 141.

تفكيكي يُعيد ترتيب العلاقات بين العلامات ويستخرج ما بينها من روابط خفية، بحيث يتحول القارئ إلى شريك في إنجاز الدلالة لا مجرد مستقبل سلبي لها.

وخلال التفاعل بين النص والقارئ "يظهر النص الأدبي كرسالة ذات طبيعة تخييلية متبادلة بين كاتب وقارئ، يحتاج إلى ترميز خاص في مستوى الكتابة وإلى تفكيك يراعي هذه الخصوصية في مستوى الفهم والتأويل"[1]، فهذا يعني أن الكاتب حين يكتب لا يضع كلمات فحسب، بل يضع "مفاتيح" داخل البنية تسمح للقارئ بالولوج إلى عالم النص، بينما يتطلب من القارئ امتلاك كفايات لغوية وثقافية وتأويلية تمكّنه من التقاط تلك المفاتيح واستثمارها. فالتخييل هنا ليس هروبًا من المعنى، فهو طريقة مخصوصة لصناعته: إنه يخلق أفقًا من الاحتمالات الدلالية التي لا تتحدد إلا عبر فعل التلقي، لذلك تتعدد القراءات وتختلف باختلاف القرّاء والسياقات، دون أن يعني ذلك انفلاتًا مطلقًا من ضوابط النص.

إن تركيز أصحاب نظرية التلقي على الخطاب الكتابي نابع من إيمانهم بأن الكتابة تمكنهم من دراسة تاريخ التلقي، خصوصا مع آراء ياوس الذي عمد إلى الكشف عن تأثير التلقي في تاريخ الأدب، وتجدر الإشارة أن عملية تلقي النص المكتوب ما هي إلا عملية تواصل مقنّن يلخصها حميد لحميداني فيما يأتي:

- في إطار التواصل لابد أن نتحدث عن تداول أو نقل معرفة أو خبرة أو خبر أو رسالة.
- وأن يكون هذا النقل بين طرفين أحدهما يسمى باثا والثاني يسمى مستقبلا.

[1] ميلود حبيي: النص الأدبي بين التلقي وإعادة الإنتاج، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1999، ص 167

– لا بد أن تكون الرسالة مسنّنة (codèe)وأن تؤثر أو تغير حالة المستقبل.

– يمكن أن يكون مضمون الرسالة مشفّرا بواسطة أي لغة رمزية أو إشارية [1]

ونخلص إلى أن عملية التلقي في الخطابين الكتابي والشفوي أعطت للمتلقي سلطة التقبل أو الرّفض، وأنه في الحالتين هناك عملية تبادل وتفاعل بين الخطاب ومنشئه ومتلقيه، إلاّ أنّ تركيز أصحاب نظرية التلقي منصب على النصوص المكتوبة و هذا ينبع من حاجتهم إلى تتبع ودراسة التلقيات المتعاقبة للخطاب.

مقولة للتفكير التحفيزي (02)

" إن القصد هو المحرك الأول للخطاب و تحديد نوعه، إذ لا يتكلم المتكلم مع غيره إلا إذا كان لكلامه قصد، و هذا القصد محدد، و على السامع معرفته وتحديده، مستعينا بالقرائن المقالية و المقامية، و لكن مراتب السامعين تتفاوت في إدراك مقاصد المتكلمين تبعا لتفاوت قدراتهم العقلية و اللغوية و الثقافية"

حيدر جاسم جابر الدنيناوي، القصدية و أثرها في توجيه الأحكام النحوية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار الوضاح للنشر، عمان، الأردن و مكتبة دجلة للطباعة و النشر و التوزيع، بغداد، العراق، ط1، 2016، ص 105.

[1] حميد لحميداني: القراءة وتوليد الدلالة، تغيير عاداتنا في قراءة النص الأدبي، المركز الثقافي العربي، المغرب ط 2، 2007، ص 50